افتتاحية

الحمد لله علىٰ نِعَمِه، وأولها نِعْمة الحياة؛ التي جعلها مراحل ودرجات، يوصل أولها إلى آخرها. وأن جعل أولها اختبارًا وآخرها جزاءً، والحمد لله كل الحمد إذ أنزل علىٰ عبده الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء، ولم يجعل له اختلافًا ولا انحرافًا عن الحقِّ، ولا خروجًا عن الحِكْمةِ؛ بل جعله منهجًا مرشدًا إلى سواء السبيل، معنيًّا بمصالح العباد، ومنظمًا لحياتهم علىٰ الأرض، فلم يترك أمرًا إلا شَمَلَه بالحكمة والعدل، سواء في العبادات أو المعاملات أو العادات أو العقوبات.

ولأن الكتاب هو منهج الله الذي نزله من لَدُنْهِ تشريعًا محكمًا، صالحًا لكل زمان ومكان، لينظِّم حياة الناس كافة، فكان لزامًا أن يخاطب العباد دون تفرقة أو تمييز.... ولِمَ لا؟ وهو أعظم نِعَم الله علىٰ الإنسان؛ إذْ أخرج به المؤمنين من الظلمة إلى النور، وجعله نذيرًا للكافرين والعصاة الذين يشذُّون عنه ويطلقون جِماح رغباتهم وأهوائهم يتبعونها من دون الالتزام بأوامر الله ونواهيه...

لقولـه سبحانه وهو خير القائلين: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢]، فأنذر من كذبه وخالفه بأن جعل له عقوبتين:

عقوبة عاجلة في الدنيا، وعقوبة آجلة في الآخرة. وسبحانه إذ بشر المؤمنين الملتزمين بمنهجه، الذين يعملون الصالحات؛ بأن جعل لهم أجرًا وثوابًا ونعيمًا لا ينقطع عنهم أبدًا، جزاءً لهم علىٰ صبرهم وتحملهم مشقة الطاعات والالتزام بأوامره ونواهيه.

وفي ذلك جاء سبحانه بما لم يستطع بشر الإتيان بمثله من تشريعٍ حَوَىٰ منهجًا ربانيًّا قيمًا لتقويم النفس البشرية وتوجيهها، ذلك أنه سبحانه من فَرْطِ علمه بخبايا هذه النفس قد أوجد لها ما يحثها به علىٰ حسن العمل. ولِمَ لا وهو الخالق...

إذْ مثلما فرض العقاب بمقاصدِهِ المختلفة علىٰ المفسدين في الأرض، فلم يترك الطائعين بغير حافز يحثهم به علىٰ العمل الصالح، فوعدهم بالنعيم الأبدي جزاء صلاحهم وسعيهم بين الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وهو ما عجز عنه الثقلان علىٰ حدٍّ سواء.

مقدمة

لقد خلق اللـه الإنسان في أحسن صورة، وقدَّر لـه قدره، ثم حمَّلـه أمانة العقل، فميّزه بها عن سائر مخلوقاته، وعِلَّة التمييز أن فَطَرَه علىٰ الاستعداد للخير والشر معًا، فحثَّه بذلك علىٰ التفكر والتدبر؛ للاختيار، بهدف التفضيل بعد المقارنة، ولكي تتم عملية الاختيار عن عقيدة سليمة... لذلك فالاختيار هو عين المسئولية.

ولأن الغاية من الخلق جُعِلت في الإقرار بقدرة اللـه ثم العبادة والطاعة، فإن العقل مُلْزم بإرادته علىٰ الانصياع لهذه الغاية، وألا يحيد عنها، لا سيما وأن المنهج واجب الاتباع موجود منذ البداية، متضمن الأوامر والنواهي الإلهية الهادفة إلى تحقيق ذلك.

وباتباع هذا المنهج الربّاني يصير الإنسان مطيعًا محققًا للغرض من التكليف؛ ونتيجة ذلك أنه يحصل علىٰ الوعد بالنعيم الأبدي. ولكن بهجر المنهج والشتات عنه يقع العبد في دائرة التحريم والرذيلة، فيصير عاصيًا، ونتيجة ذلك أنه يستحق العقاب.

ذلك هو الأساس الذي بُنِي عليه الوجود الإنساني علىٰ الأرض؛ لذلك أوجدت معه قوىٰ الشرّ متمثلة في إبليس وسلالته، تحقيقًا للتوازن بين القوتين: قوىٰ الخير متمثلة في المنهج الإلهي وتعاقب الرسل للدعوة والتذكير به، وقوىٰ الشر متمثلة في إبليس وسعيه بما أوتي من إمكانات بين بني آدم يزيّن لهم الرذيلة ويحثهم علىٰ اتباعها. والإنسان مطالبٌ بأن يخوض غمار هذا الصراع... ذلك هو الاختيار الذي وُضع فيه منذ البداية، وعليه أن يخرج من غماره نقيًّا طاهرًا مؤهلاً لحياة السماء. فإما نعيم أبدي، أو عقاب أبدي.

بين القانون والمنهج

خلق اللـه الكون بكلِّ عناصره ومكوناته، ثم جعل لحركته آلية، هذه الآلية التي أُخْضِعت لها الكائنات والمخلوقات جميعًا؛ بحيث تسير في فلكها وجودًا وعدمًا، دون أي تدخل إرادي، وفقًا لحركة ثابتة راسخة مثال في الانتظام والاستقرار... ذلك هو القانون الذي يسري علىٰ الكون برُمَّتِه بما فيه الإنسان، وهو ما يُعرف بـ (قانون التسخير)، وقد شاءت القدرة الإلهية ألا يكون للإنسان اختيار في مواجهة هذا القانون، لئلا يترتب علىٰ ذلك اختلال في نظام الكون.

أما الإنسان فقد أراد اللـه أن يميزه عن سائر خلقه؛ بأن جعل لـه منطقة إضافية إلى جانب خضوعه لقانون التسخير، هذه المنطقة هي صلاحية الاختيار؛ بحيث يكون بها الكائن الوحيد المُخيّر من بين المخلوقات... يقول سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢]. والأمانة في القدرة علىٰ التمييز، وهي تحتاج إلى مكونين أساسيين، هما: العقل الذي يقود حركة الإنسان وحريته طوال سنوات عمره المُقدَّرة له، بواسطة الدين في مواجهة نفسه ومجتمعه وخالقه ، تلافيًا للإضرار بنفسه أو بغيره... والفكر الذي يعد نتاج عمل العقل وفق معلومات بعضها خارجي وبعضها معقود في الفؤاد، وذلك للتمكين من الاختيار بين بديلين أو أكثر... تلك هي منطقة التمييز التي تفرّد بها الإنسان عن غيره من الخلائق... وهما مناط التكليف... ذلك هو المنهج.

فالإنسان إذن خاضع لقانون التسخير فيما لا يجب عليه التدخل فيه من شئون خلقه ونموه وفنائه، ثم أنه مُلْزَم بالمنهج الذي يحرسه عقله، ويعتبر سبب تكريم الخالق لـه وتمييزه به... طالما ظلَّ حريصًا عليه؛ لذلك فهو مخلوق ذو طبعين متنافرين: الاستعداد للطاعة، والاستعداد للمعصية، وهما يُحْدِثان

صراعًا في نفسه... لهذا وضع اللـه المنهج قاصدًا منه الحفاظ علىٰ أسباب الحياة ومقوماتها، وفي المقابل جعل الحياة امتحانًا للمكلَّف. فمن تخير من منطقة الطاعة والالتزام بالمنهج؛ فاز بالثواب، ومن غلبت عنده منطقة المعصية؛ انحرف عن المسار، وصار مستوجبًا للعقاب.

العدل الإلهي وحتمية العقاب

العدل صفة ذات للـه تعالى، بمعنىٰ اكتمال مكونات العدل لذاته دون شريك لـه فيها، فصارت بذلك صفة لـه وحده واسمًا من أسمائه المتفرد بها، ومناط تحقق العدل في الأمر التشريعي الإلهي؛ الذي جاء لِيُنظِّم حركة الحياة.

فمتىٰ أقيم الدين واستقام نظام الحياة، اكتمل المنهج الإلهي، وصار العدل محققًا. ولا يعني الدين أن يؤمن الناس بالإله، لأن إيمانهم بالإلـه أمر يعود عليهم فيما بعد، فإن شاء اللـه لعصبة من عصب الخير أن تؤمن باللـه ورسولـه الذي جاء ليكمل منهج الحياة وحركتها، فإن ذلك كافٍ في أن تسود حركة المنهج.

وحين يسود المنهج في حركة الحياة في الأرض فذلك هو مراد التشريع[١]، وصفة العدل تقتضي ألا يفرض اللـه إرادته علىٰ عباده، وألا يجعل علمه سببًا في وقوع معصية إنسان أو طاعة آخر[٢].

---

(١) انظر محمد متولي الشعراوي، عقيدة المسلم ص ١٠٥، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

(٢) انظر الشيخ محمد حسن آل ياسين، العدل الإلهي ص ١٩، دار الكتاب الجامعي، القاهرة.

الجبر والاختيار

ومفاد ذلك أن صفة العدل تضع أعمال الإنسان في منزلة وسط ، بين أن يكون مجبرًا أو مختارًا، فالجبر فيما لا إرادة لـه فيه، كاستقبالـه للمسائل الكونية اللازمة لحركة الحياة، والاختيار فيما جعلت لـه فيها إرادة التمييز لتعلقها بنفسه وتفصيلات حياته، حتىٰ إذا ما فضّل واختار، فنعود إلى المنهج لقياس مدىٰ ملاءمة العمل في مشروعيته له، أي ما إذا كان قد صدر وفق المنهج، وفي إطار منطقة الطاعة، أو بعيدًا عن المنهج، وفي إطار منطقة المعصية.

فيكون الفعل الاختياري هو أساس الثواب والعقاب. فإنما وَضع المشرِّع الأعظم منهجه لِيُعين به الإنسان في تكليفه لـه طوال حياته المقدّرة؛ ليحقق لـه بذلك نموذجًا للمجتمع الفاضل، الذي يساعده علىٰ تحمل مشقّة التكاليف. ولم لا؟ واللـه سبحانه هو الحاكم الذي تتجمع لديه سلطات الحاكمية والواقعية والقانونية، وتتركز بيده شئون الإثابة والعقوبة، لا بدّ أن يكون عادلاً نزيهًا وبمنتهىٰ درجات النزاهة والعدل المطلق، ولكي يختار الإنسان - بكل رضا وطمأنينة وتسليم- طريق الإطاعة والرضوخ علىٰ ما فيها من كبح جماح الشهوة وحدٍّ من رغبات النفس وميولها معتمدًا علىٰ عدالة الحاكم في حكمه، وعدالته في تقدير التعويض عن ذلك.

ولولا الإيمان بعدل هذا الحاكم ونزاهته عن الظلم والحيف والجور، لما وجد الإنسان في نفسه باعثًا علىٰ محاربة الهوىٰ، وحافزًا علىٰ فعل الخير، ودافعًا إلى تنفيذ كل الأوامر واجتناب سائر الممنوعات والمُحرَّمات[1].

فليس من المتصور بعد ذلك أن يوقع العقاب علىٰ الجاني إلاّ في ظلِّ منهج كامل وحكم عادل، وإن لم يكن، فحتمية العقاب لا بدّ وأن تسقط عمن

---

(١) انظر الشيخ محمد حسن آل ياسين، المرجع السابق ص ١٤.

جَنَىٰ وعصىٰ ... ما لم يكفُر ..

وثبوت العدل للـه بالمعنىٰ المبيّن أمر لازم للأسباب التالية:

* أنه الشارع الأعظم والمنزه عن الغرض والهوىٰ.
* أنّه الحاكم لقولـه ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[يوسف:٤٠]
* أنه جعل تبعية العباد لـه في منهجه -طواعية- حتىٰ يستوجب العقاب لمخالفته وعصيانه لـه .. لقولـه تعالى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص:٨٤].

القضاء والقدر

والكلام في هذه المسألة لا يمكن فصلـه عن مسألة الجبر والاختيار، إذْ إن كليهما مقترن بمفهوم العدل الإلهي. وقد حرصت علىٰ تناولـه -أعني مفهوم العدل الإلهي- لشدة تعلقه بموضوع البحث في مقاصد العقوبات؛ حيث لا يمكن بأية حال الولوج إلى هذا الموضوع الهام دون الوقوف عند هذا المفهوم. خاصة وأن النّاس يحمِّلون القضاء والقدر كل شئون حياتهم اليومية من خيرٍ ومن شر ... وهي مسألة متصلة بصميم العقيدة، لذلك آثرت استعراضها في عجالة لكي أنوِّه إلى الغرض الشرعي منها في استعمالات النصوص ..

وللقضاء في اللغة أكثر من معنىٰ[١]، والقدر لغةً هو القضاء والحكم[٢]. وأما عن القضاء في القرآن، فإن المعاني الواردة في آياته الكريمة إنما تلتقي عند مفهوم ثابت .. هو: الفصل والحسم والإنجاز ... ومعنىٰ القدر: التقدير ووضع الشيء في المكان المناسب له. فعن عكرمة عن الضحاك قال في قولـه تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت:١٠] أي في أرزاق أهلها، وما يصلح لمعاشهم

---

(١) القضاء بمعنىٰ العمل، والصنع والتقدير، وكل ما أحكم عملـه أو خـتم أو تم أو أُدي .. انظر ابن منظور، لسان العرب ج١٥ ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) انظر ابن منظور، المرجع السابق ج ٥ ص ٧٤.

من التجارة والأشجار، والمنافع في كل بلدة، ما لم يجعله في الأخرىٰ[١].

وقد تباينت آراء العلماء والفلاسفة حول هذه المسألة - كلٌّ علىٰ مذهبه[٢] حتىٰ تعقَّدت وصارت معضلة من معضلات الفهم والعقيدة. ولست في سياق تناول هذه المذاهب لعدم جدواها في موضوع هذا البحث، وإنما رأيت ضرورة التعرض لخلاصة ما قيل منها لتوضيح مفهوم العدل الإلهي، وهو ما يكون مجديًا في بحثنا. إذْ إن العدل صفة تقتضي الاستواء، لقوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل:٧٦]. لذلك فإن ثبوت صفة العدل للذات الإلهية أمر حتميّ لِتحقُّق الرضاء بالنسبة للعباد، وتأكيدًا علىٰ حريتهم في الاختيار.

وأمّا أن يكون الله هو خالق الفعل في عبده ثم المعاقِب عليه، فهذا مستحيل كل الاستحالة؛ لانتفائه مع صفة العدل ... لقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]. وفي ذلك يقول المستشرق بودلي في دراسته عن الرسول ﷺ: وعلىٰ كل حال فإن الاعتقاد في القضاء المطلق الذي يُحيل الإنسان إلى أُلعوبة ليس ما عناه محمد، فقد قرر مرارًا أن الإنسان حرٌّ، حرٌّ في قبول رسالة السماء، وحرٌّ في رفض الرسالة، ومسئول عن أعماله، وبذلك يستحق العقوبة أو المثوبة: ... وقال: أغنىٰ الناس من اغتنىٰ ببذله وأشقىٰ الناس من شقي بفعله[٣].

---

(١) انظر القرطبي، تفسير القرطبي ج١٥ ص ٣٤٣.

(٢) من ذلك القدرية والمعتزلة قالوا بإطلاق إرادة الإنسان وقدرته علىٰ الاختيار، وأهل السنة والأشاعرة قالوا أن الإنسان في منطقة حرام بين الجبر والاختيار، والمتصوفة نسبوا إلى القدر كل شيء من طاعات ومعاصٍ، أما فلاسفة الغرب فقد قالوا بنظرية الاتفاقية أو الظروف والمناسبات ومفادها أن كل الأفعال لله، ولكنها تظهر علىٰ النحو الذي تظهر به متىٰ توافرت أسبابها وظروفها.

(٣) انظر بودلي، الرسول ص ١١٥.

ومن أحكم ما قيل في هذه المسألة قول أمير المؤمنين عندما عُرضت عليه تلك المسألة، حيث فسّرها تفسيرًا بليغًا حكيمًا في كلماته إذْ قال: (لعلك ظننت قضاءً لازمًا وقدرًا حاتمًا، ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، إن اللـه سبحانه أمر عباده تخييرًا ونهاهم تحذيرًا وكلّف يسيرًا ولم يكلّف عسيرًا، وأعطىٰ علىٰ القليل يسيرًا)[١].

أصِلُ من ذلك إلى أن العدل الإلهي بالمفهوم المبيَّن سلفًا حتمي الاقتران بذات الحاكم؛ تيسيرًا علىٰ المحكوم في استقبال رسالة الحاكم في قضائه وقدره، والرضاء به، والالتزام بمنهجه في الحدود والأُطر المقررة له. ومن غير ذلك لا يُتصور إثابة الطائع علىٰ طاعته، وعقاب العاصي علىٰ معصيته. وهكذا يكون قضاء اللـه وقدره تعبيرًا آخر عن أمره وحكمه وتكاليفه الموجَّهة للعباد، ويكون رضانا بالإسلام وإقرارنا بالشريعة رضاء بقضاء اللـه وقدره[٢].

فلم يُخلق الإنسان سُدًىٰ، وإنما خلقه اللـه وجعل لـه مهمة في الكون، ولذلك كانت هناك عناية من الخالق به، عناية ملحوظة في كل خطوة من خطوات حياته، يدل عليها قول الحق سبحانه: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق:٤].

وهو معنىٰ يدل علىٰ الوجود الدائم من اللـه إلى جوار العباد. وهذا المفهوم بدوره يقودنا إلى معنًىٰ أكثر عمقًا، ألا وهو أن الغاية من الحياة الدنيا هي الحصول علىٰ خير الحياة الآخرة. فلو كانت الدنيا هي وحدها الغاية -كما يظن الدهريون- فقد استوىٰ الإنسان صاحب المنهج مع غيره من أعداء المنهج، فإذا كان صاحب المنهج قد استقام في الحياة واستقامت به

---

(١) انظر نهج البلاغة ٣/ ١٦٧.

(٢) انظر الشيخ محمد حسن آل ياسين، المرجع السباق ص ٤٧.

الحياة، فإن الذي يعادي المنهج يفسد في الحياة[١].

ومن هنا شرعت سياسة الثواب والعقاب في الدنيا ابتغاء تحقيق الاستقامة والنظام المثاليين؛ لضمان حفظ سُبُل العيش للإنسان، وتطهير النفس البشرية من أدران الرذيلة ... تمهيدًا لحياة الآخرة .. التي تتطلب بشرًا كالملائكة في صفاتهم.

وهو ما أهدف إلى إثباته في هذا البحث، والله أسأل أن يهديني سواء السبيل.

رأيت تقسيم الدراسة في بحث هذا الموضوع إلى فصلٍ تمهيدي وقسمين رئيسيين:

الفصل التمهيدي: نشأة العقوبة الشرعية وتطورها:
أتحدث فيه عن النشأة التاريخية للعقوبة وفقًا للمنهج الإلهي.

القسم الأول: العقوبة:
أتناوله في بابين:
الباب الأول: العقوبة بصفة عامة.
الباب الثاني: العقوبة التشريعية.

القسم الثاني: مقاصد العقوبة:
أتناوله في بابين:
الباب الأول: مقاصد العقوبة الشرعية.
الباب الثاني: مقاصد العقوبة الوضعية.

---

(١) انظر محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق ص ١٢٨، ١٣٠.

الفصل التمهيدي

نشأة العقوبة الشرعية وتطورها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[النساء:١٦٣-١٦٥]

معصية آدم عليه السلام

إن فكرة العقاب لها أهميتها البالغة بالنسبة لحياة البشر في كل مراحلها؛ ذلك أنها ملازمة لها منذ نشأة الخلق، وتحمل تَبِعَة تحقق القدر الإلهي في إعمار الأرض ... إذ قال الله تعالى للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٣٠]، فأتمّ الله خلق آدم، وعرض عليه الأمانة، فاختار أن يتحملها، فصار بذلك مؤهلاً للاختبار، وبنُوه من بعده.

وبيان ذلك أن الله لمّا فَرَغَ من خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا، إلاّ إبليس ... استكبر وكان من الكافرين. فعاقبه الله علىٰ عصيانه وتكبره؛ بأن أوقع عليه اللعنة وجعله شيطانًا رجيمًا، ثم طرده من الجنة، إذ قال له: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[الحجر ٣٤-٣٥].

وأمّا آدم فقد فطره الله علىٰ الطبيعة البشرية من حيث الاستعداد للطاعة والمعصية، ثم أسكنه وزوجته الجنة، وأطلق لهما أن يأكلا ما أرادا من كلِّ ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة؛ ابتلاءً منه لهما، وليمضي قضاؤه فيهما، وفي ذريتهما[1].

إلاّ أن إبليس وسوس لهما، وزيّن لهما أن يأكلا من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما وكانت الشجرة تجعل من يأكل منها يُحْدِث، فصارا بذلك غير مؤهلَيْن لحياة الجنة، وذهب آدم هاربًا من الجنة، فناداه ربه: أن يا آدم مني تفر؟ فقال: لا يا رب ولكن حياءً منك، فقال: يا آدم من أين أتيت؟ قال: من قِبَلِ حواء يا رب، فقال الله: فإن لها عليَّ أن أدميها في كل شهر وأن أجعلها

---

(١) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج١ ص ٣١.

سفيهة، وقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرهًا وتضع كرهًا وتشرف علىٰ الموت مرارًا[1]، ثم: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٤]. وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس.

نخلص من ذلك إلى أن الله سبحانه قد عاقبهم علىٰ عصيانهم ومخالفتهم لأوامره. **والقصد من هذا العقاب** هو تحقق القدر الإلهي في عمران الأرض، لقولـه تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٤] لذلك فقد جاءت العقوبات متباينة بحسب درجة المعصية وتَحقُّق التوبة من عدمه:

* فإبليس قد عصىٰ الله واستمر علىٰ معصيته، ولم يتب؛ فعاقبه المولى عزّ وجلّ بعقوبات مشددة مؤبدة ... فأخرجه من رحمته، وطرده من الجنّة، وجعله شيطانًا رجيمًا، غير ما توعده به من عقاب الآخرة.
* وحواء كانت الأكثر انفعالاً بوسوسة الشيطان، وأغوت آدم ليأكل من الشجرة المحرَّمة؛ فعاقبها الله بالطرد من الجنّة لثبوت عدم صلاحيتها لحياتها، وجعلها سفيهة، وجعلها تدمي كلَّ شهر، وتحمل كرهًا وتضع كرهًا، وقد كانت تحمل يسرًا وتضع يسرًا، فجعلها تشرف علىٰ الموت مرارًا.
* أما آدم فكانت معصيته واحدة، هي الأكل من الشجرة، ثم إنه تاب وأناب، لكنه لم يعد صالحًا لحياة الجنة، فطرده الله منها...

وأُهْبِطوا جميعا إلى الأرض ... فصارت حياة الإنسان عليها عقابًا لآدم وذريته من بعده، وتحقيقًا للقدر الإلهي في أن يجعل في الأرض خليفة، ثم إن

---

(١) انظر الطبري، تاريخ الطبري ١/ ١١١، تفسير الطبري ١/ ٥٢٩.

آدم بعد هبوطه إلى المرتبة الدنيا قد عصمه الله، وجعله رسولاً، وأيّده بمنهج يتضمن كافة الأوامر والنواهي الإلهية، بما في ذلك الثواب والعقاب؛ كملازم ضروري لحفظ الدين، والنظام لحياة الإنسان علىٰ الأرض، ورحمة من الله بعباده، ليعينه به علىٰ أمور الدنيا، وفي صراعه ضد قُوىٰ الشرِّ المتمثلة في إبليس وذريته.

وكان آدم مع ما أعطاه الله تعالى من ملك الأرض نبيًّا ورسولاً إلى ولده، وأنزل عليه إحدىٰ وعشرين صحيفة كتبها آدم بيده[١] علَّمه إياها جبرائيل[٢].

وفي ذلك دليل قاطع علىٰ أن الله تعالى قد أيَّد رسُلَهُ بالمنهج الربَّاني منذ وُجِدَ الإنسان علىٰ الأرض، وأن منهجه واحد راسخ، يستهدف الخير المطلق وحفظ المصالح الأساسية لبني آدم، دون النظر إلى غرض أو هوىٰ -كما يحدث في التشريعات الوضعية- بما في ذلك سياسة التجريم والعقاب.

أول جناية في التاريخ

كان أول ذلك خبر ابنيْ آدم عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

---

(١) ذلك دليل علىٰ أن آدم عليه السلام كان عالـمًا بما في ذلك معرفته بالقراءة والكتابة، إذ تلقىٰ علمه مباشرة من الله تعالى، لقوله سبحانه [وعلم آدم الأسماء كلها](البقرة:٣١)، والعلم بأسماء الأشياء يقتضي وجوبًا العلم بذوات الأسماء. وهذا يفنِّد ادعاء بعض الملحدين العرب في أن الإنسان قد نشأ جاهلاً في صورة شبيهة بالقردة ثم تطور مع تطور الزمان. (نظرية النشوء والارتقاء – داروين).

(٢) انظر ابن الأثير، المرجع السابق ج١ ص ٤٣.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة:٢٧-٣٠].

فأيًّا كان الباعث علىٰ القتل، إلا أن المنهج واضح منذ البداية؛ ومنه تحريم قتل النّفس إلا بالحق. وعلىٰ الرغم من أن القاتل كان حريصًا علىٰ قتل أخيه، فإن القتيل لم يكن كذلك، لتمسكه بالمنهج، لقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وفي ذلك انعقد فؤاده علىٰ ردّ الأمر والاحتكام فيه إلى الحقّ سبحانه، لقوله: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فهو يعلم بحقيقة المنهج، ويُسلِّم به، فأراد لأخيه أن ينال العقاب الحتمي علىٰ عدم امتثاله لحكم الله في منهجه من ناحية، وعلىٰ قتل النفس التي حرَّم الله قتلها من ناحية أخرىٰ.

وفي قوله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ دليل علىٰ وضوح هذا المنهج، وهو ما صدّقه الرسول ﷺ قولاً وعملاً فيما ثبت في الصحيحين أنه قال: «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»[(١)]. لذلك كان قول القتيل من ابنيْ آدم، أي: إني أريد ترك مقاتلتك، وإن كنت أشد منك وأقوىٰ، إذ قد عزمت علىٰ ما عزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك، أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة من قبل ذلك[(٢)].

ولقد اختلفت السياقات في القول بالعقاب الذي حلّ بالقاتل من ابنيْ

---

(١) انظر فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين ج١ص٥٩، دار الوطن. رواه أحمد وابن ماجه والنسائي والبخاري ومسلم وأبو داود.

(٢) انظر ابن كثير، البداية والنهاية ج١ ص ٥٩، دار الحديث، القاهرة.

آدم[1]، وكلها سياقات ضعيفة لا أقرها لعدم توافقها مع منطق العقل السليم، وإن كنت أميل إلى مضمون ما ذكره ابن عباس -مع التحفظ- لما ينطوي عليه من توافق مع صريح قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣]. والأرجح في رأيي؛ أن آدم عليه السلام لم يُقِم حدّ القصاص على ابنه القاتل، وإنما اكتفى بإبعاده، ونفيه من الأرض؛ لتحاشي الفساد والتخريب ... وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول: أنه جمع بين صفتين في وقت واحد: الأولى، هي أنه ولي المقتول صاحب الحق الشرعي في القصاص ... والثانية، أنه الحاكم الشرعي المنوط به تطبيق الأحكام الشرعية في الأرض، تحقيقًا لمبدأ العدل والاستقرار وحفظ النظام.

السبب الثاني: أن حياة البشر كانت في مهدها، وتحتاج إلى التناسل لانتشار الجنس البشري وتزايده، وانتشار العمران؛ تحقيقًا للقصد الإلهي في إعمار الأرض.

---

(١) ذكر عن مجاهد: أن قابيل عوجل العقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً به وتعجيلاً بذنبه (انظر في ذلك البداية والنهاية ج١ ص ٩٧). وعن ابن عباس أنه قال: لما قتل أخاه أخذ بيد أخته ثم هبط بها من جبل النود إلى الحضيض، فقال له آدم: اذهب فلا تزال مرعوبًا لا تأمن من تراه. فكان لا يمرّ به أحد من ولده إلا رماه. فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابن له، فقال للأعمى ابنه: هذا أبوك قابيل فارمه فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله، فقال ابن الأعمى لأبيه: قتلت أباك. فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات، فقال: يا ويلتى قتلت أبي برميتي وابني بلطمتي (انظر في ذلك الطبري، تاريخ الطبري ج١ ص ١٤٣-١٤٤) ... والله أعلم.

السبب الثالث: التسليم بما وعد به الحاكم الأعظم سبحانه من إنزال أشد العذاب بالقاتل إذا ما رُدَّ إليه، وأن في تركه وإمهاله عقابٌ نفسي يضاف إلى النفي ... والله تعالى أعلم. وأما عن حديث الرسول ﷺ: «**ليس من نفس تُقتل ظلمًا إلاّ كان علىٰ ابن آدم كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل**»[(١)]، فإنه بذلك يؤكد أن عقاب ابن آدم ممتد إلى يوم الدين بجريرته وجريرة من يليه فيما سنّه من جناية قتل النفس. فتكون القاعدة أن كل جانٍ مسئول عن جنايته وهو الذي يؤخذ بجريرته لما كلَّفه الله به من تكاليف.

فذلك هو الأساس الذي بُني عليه المنهج ... التكليف ... لذا جاء مفهوم الثواب والعقاب مرتبطًا به ارتباط السبب والنتيجة؛ لكي يسود المنهج، ويحقق الغايات المقصودة من أحكامه وأوامره ونواهيه. ومع هذا، فإن سياسة التجريم والعقاب بالمفهوم النهائي لم تكتمل إلاّ باكتمال المنهج الرباني -ولا يعني ذلك الانتقاص فيه والعياذ بالله- وإنما قَدَر الله فيه ألاّ يكتمل إلاّ بالإسلام.

ولبيان ذلك ... فإن لكل مرحلة زمنية ظروفها وأحداثها والمخاطبين فيها، فكان المنهج يأتي بلغة خطاب ملائمة لتلك المرحلة مراعيًا ظروفها ودرجة وعي المكلفين فيها ... وهو ما ينطوي علىٰ حكمة بالغة ومنتهىٰ العدل.

ولا يعني الانتقاص اختلافًا في مضمون المنهج، وإنما كان مضمونه واحدًا وثابتًا منذ البداية، إلاّ أن معيار التطور في حياة الأرض فرض أن يكون المنهج مرنًا متجددًا، ليلائم كل مرحلة من هذه المراحل بما تشمله من اختلاف عن المرحلة السابقة عليها واللاحقة لها ... فمن هنا جاء عدم اكتمال المنهج. وعلَّة

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٣٥) كتاب تحريم الدماء القسم الرابع.

ذلك أنه لكي يطبق تطبيقًا كاملاً بما يوافق المفهوم الدنيوي والأخروي، فلا بدّ من أن تتوافر شروط تطبيقه بصورة كلية؛ لأنه منهج مثالي.. لا يمكن تطبيقه إلا في ظلٍّ مجتمع مثالي متكامل، يضمن للفرد حياة كريمة. وتحقيق ذلك يقتضي أولاً حسم مسألة الإيمان بالله تعالى وبربوبيته، حتىٰ يمكن تلقّي منهجه والعمل بأحكامه بعد ذلك ... وهذا لم يحدث إلاّ في ظل الإسلام الذي حمل الخطاب الإلهي للأرض كافة.

لذلك جاءت سياسة التجريم والعقاب مرتبطة في (كل مراحلها) بما جاء به الرسل والأنبياء من تبليغ الخطاب الإلهي المعنيّ بظروف أقوامهم الذين بُعثوا إليهم مبلغين ومنذرين ... لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:١٦٥]، فإنما البلاغ بوجود الله ووجوب وحدانيته. إذْ إن الإنسان قد فُطر علىٰ النسيان، ولم يزده تعاقب الحقب الزمنية إلا نكرانًا وجحودًا وتماديًا في الضلال، لذلك بعث الله الرسل، وأيّدهم بآيات صدق معجزة في الناحية التي تفوقت فيها أممهم؛ لتكون برهانهم في التبليغ.

وبالطبع فقد تضمنت هذه الرسالات منهجها في الأمر والنهي. وكان حتميًّا ترتب العقاب علىٰ مخالفة هذه الرسالات وأحكام العمل بمضمونها. إلاّ أن كلّ الرسالات السابقة علىٰ الإسلام -باستثناء رسالة آدم عليه السلام-[1] لم تأت إلاّ بالنهج الأخروي فيما تضمنته من البلاغ عن الله وحتمية الإيمان به، أما المنهج الدنيوي فلم يتحقق لعدم اكتمال المجتمع الإنساني في صورته المثالية.

---

(١) كان مما أنزل عليه تحريم الميتة، والدم ولحم الخنزير (انظر الطبري، تاريخ الطبري ج١ ص ١٥١) وأنزل الله عليه خمسين صحيفة (المرجع السابق ج١ ص ١٥٣، ١٥١).

عقوبة قوم نوح ومن بعده

ظلّت البشرية على عهدها بالمنهج الإلهي الذي جاء به آدم والأنبياء من بعده، حتى جاء نوح عليه السلام، إذْ بعثه الله لّما عبدت الأصنام والطواغيت، وتمادى الناس في الضلالة والكفر، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة(١).

وكان سبب بعثه إليهم أنهم أول قومٍ ينتشر الفساد فيهم، ويعم بينهم البلاء بعبادة الأصنام. فأراد الله أن يبعث منهم رسولاً يدعوهم إلى الحقّ والرجوع إلى المنهج الرباني، فمكث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين. ودعاهم إلى الله بشتّى أنواع الدعوة: في الليل والنهار، في السرّ والجهر، بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، ورغم ذلك، لم يستجيبوا لدعوته، بل استمر أكثرهم على الضلالة، ونصبوا له العداوة في كل وقتٍ وأوان: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأعراف:٦٠].

ثم إنه عليه السلام لّما آيس من قومه، توجه بالشكوى إلى الحق سبحانه قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:١١٧-١١٨]، فأخرجهم الله من رحمته وحقّ عليهم عقابه، وأي عقاب؟ قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧](٢).

---

(١) انظر ابن كثير، البداية والنهاية ج١ ص ١٠٣.

(٢) ... والعقاب الذي حلّ بهم إنما يحمل في مقصده سمتين: الأولى، أنه جزاء الكفر الذي يعتبر جريمة لا يغفرها المولى عز وجل. والثانية، أنه تطهير للأرض من درن عبادة الأصنام؛ إذ أراد سبحانه أن يمهد الأرض لبداية جديدة، ولكن بعد إزالة =

ولقد واجه الرسل مصائر متشابهة ممن أُرسلوا إليهم لتذكيرهم بالحقّ وتحذيرهم من مغبّة ترك المنهج، فكانت أقوامهم تسومهم سوء الظنّ، وترميهم بالاتهامات وتكذّب رسالتهم.

=

أسباب البلاء. وبالتالي لم يكن القصد من العقاب هنا الإصلاح أو الردع -لفوات أوان ذلك- وإنما جاء ليحقق هدفين، هما:

(أ) إنفاذ الوعيد بما حذر الرسول منه ونصره ومن معه ممن آمنوا برسالة السماء.

(ب) تطهير من بقي من المؤمنين تمهيدًا لاستقبالهم الحياة بقلوب طاهرة وفطرة سليمة. وأما الوسيلة التي استعملها المولى الجبّار سبحانه في تحقيق وعيده فكانت الماء، وفي ذلك دليل على بيان قدرته وإعجازه؛ لأنه سبحانه استعمل نفس الوسيلة ليحقق بها غايتين متناقضتين في آن واحد، هما: إغراق الكافرين، وإنقاذ المؤمنين. فضلاً عما يحمله الماء من خاصية جعلها الله من أهم خواصه؛ ألا وهي خاصية التطهير التي أراد بها تنقية الأرض من درن الكفر والفساد. فالماء طاهر في ذاته مطهر لغيره .. لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال:١١]. وأما عن استخدام المولى سبحانه وتعالى للماء كوسيلة عقابية حاسمة، فقد استعملها في أكثر من موضع تحقيقًا للغايات ذاتها. ولنأخذ من ذلك مثلاً قصة موسى عليه السلام مع فرعون زعيم كفرة القبط، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ [الشعراء:٦٥-٦٦]. وقد ذكر ابن كثير أن جبريل عليه السلام تبدّى في صورة فارس راكب على رمكة (فرس تتخذ للنسل) فمر بين يدي فحل فرعون، لعنه الله، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد فبادر مسرعًا، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرًّا ولا نفعًا، فلما رأته الجند سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أكتعين (أذلاء) أبصعين (غرقى). فكان الماء (البحر) وسيلة نجاة موسى عليه السلام ومن معه ووسيلة عقاب محققة الغرق لفرعون ومن معه في آن واحد.

وتعددت الوسائل الإلهية المستعملة في إنزال العقاب علىٰ الذين كفروا وكذبوا الرسل فيما أتوا به[١]. إلا أنها قد اتفقت في بيان القدرة الإلهية وثبات الغاية؛ وهي التوجه إلى الله بالعبادة.

ومن أجل ذلك كُلّف الإنسان، إذ إن إقامة العدل علىٰ الأرض أمر

---

(١) من ذلك أن عاد إرم الأولى، وهم قوم هود عليه السلام لّما أمعنوا في الكفر، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأصرّوا علىٰ كفرهم، غضب الله عليهم، وعاقبهم بأن أرسل عليهم ريحًا صرصرًا أهلكتهم فجعلتهم غثاءً.
ومن ذلك أن ثمود، وهم قوم صالح عليه السلام، كانوا قوم سوء وفساد في الأرض، وكانوا عبّاد أصنام، ثم إنهم كذبوا الرسول ونالوا منه بالفعال والأقوال، همّوا بقتله وقتلوا ناقته التي جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر بأن أرسل عليهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفلهم، ففاضت أرواحهم في ديارهم جاثمين.
ومن ذلك أن النمرود كان أحد ملوك الدنيا في عهد رسالة إبراهيم عليه السلام، وكان طاغية جبارًا، فكذّب دعوة الخليل، فحاجّه فيما أتاه به، وادعىٰ لنفسه الربوبية، حتىٰ ناظره الخليل، فبهت الذي كفر. فأرسل الله عليه بعوضًا، فدخلت واحدة منها في منخره، فمكث أربعمائة سنة عذّبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمزراب حتىٰ أهلكه الله بها.
ومن ذلك أهل سدوم، وهم أهل لوط عليه السلام، وكانوا من أفجر الناس، وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد، هي إتيان الذكور من دون النساء، فدعاهم لوط إلى الحقّ ونهاهم عما يفعلون، فتمادوا في غيّهم، فجعلهم الله عبرة، إذ أُهلكوا بوابل من حجارة من سجيل منضود، فصيّر أرضهم عليهم بحيرة نتنة ذات أمواج لا ينتفع بمائها لرداءتها.
ومن ذلك أهل مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام، وكانوا كفارًا يعبدون الأيكة، ويبخسون المكيال والميزان، فكذبوا نبيهم فيما أتاهم به، فجمع الله عليهم أشكالاً من العقوبات.

يقتضي حماية مصالح أساسية للعباد، تمهيدًا لاختبارهم واصطفاء الأصلح منهم ليكون من أهل الجنّة، بعد تمام تطهيره من درن الرذيلة والعصيان ... هذا فيمن آمن بالله ومنهجه. أما الذين كفروا وتمادوا في غيّهم .. فيقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾[الجاثية:٣١]، ويقول: ﴿ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الجاثية:٣٤]، فهؤلاء قد عاقبهم الله في الدنيا بأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبيّن فيهم عجائب قدرته -كما بينت سلفًا- غير ما توعدهم به من عذاب الآخرة.

بنو إسرائيل بين التكليف والعقاب

لقد أعزّ الله بني إسرائيل بموسىٰ عليه السلام، وكانوا قبل ذلك شعبة مستضعفة من أهل مصر يرضخون لملك فرعون الغاشم[(١)]، فلما جاءهم موسىٰ برسالته، آمنوا به.

وفي ذلك اختلاف عمَّن سبقهم من الأمم؛ من جهة إعلانهم للإيمان برسولهم وبدعوته - بخلاف ما أضمروه في نفوسهم من النفاق- فلم يكفروا ولم يشركوا بالله شيئاً[(٢)]، لكنهم -مع هذا- كانوا قوم حيلة ومداهنة، حيث إنهم لم يقبلوا العمل بالتوراة كمنهج ربَّاني؛ للأثقال التي جاءت بها ... اللهم

---

(١) الذي استعبدهم واستخدمهم في أخس الصنائع – رغم أنهم كانوا خير أهل الأرض آنذاك – لأنهم كانوا من سلالة يعقوب عليه السلام، وعَلِمَ فرعون أنه سيبعث فيهم رسولاً يكون هلاك ملكه علىٰ يديه، فهال فرعون ذلك فتوعدهم وأخذهم بالشدة والقتل، وأذاقهم صنوف العذاب.

(٢) باستثناء عبادتهم العجل وتوبتهم بعد ذلك، إذ إن توبتهم قُبِلت وغفر الله لهم، فضلاً عن تكرار عصيانهم فيما بعد، ورهن قبول توبتهم للعقاب الدنيوي العاجل في كل مرة يعصون فيها.

إلاّ بالقوة، إذ قال لهم موسىٰ: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٦٣][1].

ثم إنهم لم يُؤمروا أمرًا إلاّ رهنوه لمطالعة البرهان المادي.

وقد ورد في التوراة نصوص تحرِّم القتل، والسرقة، والزنىٰ، والشرب ... وسأتناول بعض تطبيقات هذه النصوص في موضعها من البحث إن شاء المولى العلي القدير.

إلاّ أن اليهودية جاءت واتخذت من المادية وسيلة إدراك للكون والقوة القائمة عليه، لدرجة أن أصبح لليهود تصور مادي في الذات الإلهية، وذلك لا يلائم ذات الله؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[الشورى:١١]. وفي ذلك فساد يعطل تطبيق المنهج ويَسِمه بالقصور وعدم الاكتمال، وليس القصور في المنهج ذاته، وإنما فيمن خوطب وكُلّف به من العباد.

ونتج عن ذلك تغلّب منطقة المعصية علىٰ منطقة الطاعة لدىٰ اليهود؛ بسبب مادية تلقيهم للخطاب الإلهي المتعلق بالأفعال والتروك. فاستحقوا العقاب في أكثر من موضع، ورُهِن رفعُهُ عنهم بالتوبة في كلّ مرة كانوا يعصون فيها ويخالفون دعوة الرسول[2].

---

(١) انظر ابن الأثير، المرجع السابق ج١ ص ١٦٨.

(٢) من ذلك أنهم عوقبوا بالاقتتال ليتوبوا من جناية الشرك بعبادتهم للعجل، إذ قال لهم موسىٰ: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٤] ورفضهم الإيمان برب موسىٰ في الميقات حتىٰ يروه جهرة، فأخذتهم الصاعقة عقابًا لهم علىٰ كفرهم، إذ قالوا: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، ولولا أن ناشد موسىٰ ربه وتضرع لما غفر الله لهم ولما بعثهم وأسقط عنهم العقوبة. وكذلك امتناعهم عن دخول بيت المقدس =

الروحية في المسيحية

كانت دعوة المسيح عليه السلام حتمية بعد اليهودية؛ إذ باعتبارها ديانة روحية، فقد جاءت للحدِّ من مادية تلقي اليهود لرسالة موسىٰ عليه السلام. فكان وجودها منطقيًّا ليُصوب المادية اليهودية[١].

فالمسيحية أتت بقيم روحية خالصة؛ لأنها أكملت الحلقة المفقودة عند اليهود، وما من شك في أن تأثير هذه القيم قد امتد ليشمل سياسة التجريم والعقاب كذلك، ولكن لم يحدث وفاق بين المادية اليهودية والروحية المسيحية، بل حدث عداء بينهما؛ ومن هنا جاء الدين الجديد جامعًا بين المادية ومنهج القيم[٢]؛ لذلك يقول المولى سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩].

الإسلام وحتمية العقوبة

نستخلص مما سلف؛ أن الوجود الإنساني علىٰ الأرض، إنما هو تدريب روحي وجسدي ونفسي علىٰ الارتقاء لملاءمة حياة السماء، فيكون كفاح الإنسان ضد فطرته الجسدية والنفسية المائلة إلى التدني، وسعيه الدءوب للارتقاء والتسامي الروحي، هو معيار التمييز للفوز في الاختبار والنجاة من العقاب في الدنيا والآخرة، وبحسب درجة الالتزام بالمنهج الذي أراد الحق

=

لملاقاة القوم الجبارين كما أُمروا ... إذ قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] وإذ ذاك غضب موسىٰ ودعا ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٥]، فحل بهم غضب الله وطُردوا في التيه أربعين سنة، فكان الجزاء من جنس العمل.

(١) انظر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، عقيدة المسلم ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق.

تطبيقه في الأرض، تُقاس درجة السّمو بالنفس أو التدني بها، لتحدد بعد ذلك الدرجة الحقيقية التي يستحقها كل مكلَّف.

وتحقيق ذلك يتطلب بالضرورة الانصهار التام بين مراد الله في دينه ونظام الحياة الذي يسود حركة الأرض؛ ليتحقق بذلك المجتمع المتكامل، القائم على منهج كامل، يحمي مصالح المكلّفين فيه، ويبطل كافة المفاسد التي تلحق المضار بالمجتمع وأفراده.

لذلك جاء الإسلام منهجًا متكاملاً ...

وبيان ذلك أنه جاء لينظّم حركة الحياة، فمتى استقام نظام الحياة، يكون المراد من التشريع قد حَدَثَ، وحين يسود منهج الله في حركة الحياة في الأرض تسود حركة السماء في منهج الأرض، والإسلام حينما جاء بحركة الحياة جاء لِيُكْمِل إسعاد الحياة[1]، لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وبذلك يتم إقامة العدل على الأرض، فإذا كانت الولاية المباشرة لتطبيق المنهج تعمل وفق المنهج دون خلل، فيكون منهج الله قد اكتمل، ويستتبع ذلك حتمية إقامة حدود الله في الأرض.

---

(١) انظر محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق ص ١٠٥.